

**الوسطية والاعتدال والتسامح
بين الخصائص الكامنة
والممارسات الظاهرة**



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الحكم العدل ، والصلاة والسلام على نبي الرحمة والفضل ، وعلى آله وصحبه أهل الحكمة والعقل ، وبعد :

هذا بحث موجز عن منهجية الإسلام وعلاقته بالآخرين في مظلة شريعة الله تبارك وتعالى المتميزة بالوسطية والاعتدال والتسامح في كل شؤون الحياة الخاصة والعامة ، مع النفس ، وفي مجال الاعتقاد ، والاقتصاد ، والتربية ، وأحكام التشريع ، والحكم والإدارة ، والولاء والطاعة ، والسلم والحرب ، بل وفي الزمان والمكان وممارسة الفعاليات ، وفي المواقف والمبادئ ، والتعامل مع الآخرين على النحو المعتدل من غير إفراط في التمسك بالقيم والمبادئ ، ولا تفريط في الحقوق والمكاسب ، والحفاظ على الذات والوجود المعيشي والدولي وتلقين أصول المعرفة والإيمان الحق للآخرين ، وممارسة الحوار والالتزام بالضوابط والقيود التي تحقق التوازن والاعتدال بين المطامح والمصالح ، وبين النظرية والتطبيق ، وبين الوجود الفاعل والمنفعل ، وفي ضوء شرع الله وهدية القائم على العدل والرحمة والإحسان ، والتعاون والتعايش الودي مع الآخرين ، والتزام القيم والأخلاق والعمل على تحقيق آفاق الإسلام ونزعتها العالمية دون إساءة ولا إثارة ، ولا طمع ولا عدوان .

وهذا يوجب علينا أن نتعايش على وفق ظروف العصر والإمكانات المتاحة أو الواقعية دون تحليق في الأحلام والأخيلة والآمال المعسولة ، ومع التزام مقتضيات الحكمة والتأني والعقل والرشد ، والوعي والنضج .

ويتطلب هذا المنهج التعرف بتؤدة وموضوعية وحياد على ما يأتي :

- طبيعة الإسلام في هديه ودستوره ومقاصده وشرائعه .

- مدى التزام المسلمين قادة وشعباً عبر التاريخ القديم والحديث بأصول شرعهم .

- مفهوم الوسطية والاعتدال والتسامح وآفاق الإنسانية المعاصرة .

- الوسطية بين الإفراط والتفريط أو بين الخصائص الكامنة والممارسات الظاهرة ، أو بين النظرية والتطبيق .

* * *

طبيعة الإسلام في هديه ودستوره ومقاصده وشرائعه

الإسلام الحنيف والدين العالمي خاتم الشرائع الإلهية دين خالد ، وشرع دائم ، ورسالة إصلاح وإنقاذ ونجاة للعالم كله ، يدعو لخير البشرية في الدنيا والآخرة ، ويحرص على إشاعة قيم الحق والجمال ، والتحضر والبناء ، وغرس العقيدة الحققة ، والعمل على ضبط معايير الحياة بالنظام الأصحح ، والمنهج الأحكم ، ومعرفة الطريق الأرشد .

فإن اعتقد به عقلاء الناس وفهموه ، تحققت الغايات الكبرى ، وإن عاداه أهل الأهواء والحظوظ النفسية ، كان الخراب والدمار والانحراف عن الهدى الأقوم ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الإسراء : ٩-١٠] .

فليس الإسلام عبثاً على البشرية كما يتوهمون ، وإنما هو بلسم ناجع لجراحها وآلامها ، وتزويدها بأفضل مقومات الحياة الإنسانية .

ويقتضي هذا أن يكون الإنسان عنوان الخير المحض ، وسبيل الإصلاح والتقدم ، وأساس العمران والتحضر ، لذا تجد شرائعه كاملة تجمع بين أصول بناء العقيدة الحققة ، والعبادة الصحيحة ، والأخلاق القويمة ، والمعاملة الشريفة النقية من كل ألوان التعثر والانحراف والظلم ، والقائمة على قواعد العدل والتوازن ، ورعاية المصالح

والحاجات ، وتحقيق المقاصد والغايات من أيسر الطرق وأصح المناهج .

ثم إن هذا الدين لا ينبغي إلا الخير للإنسان ، وإشاعة روح المحبة والتعاون والمودة بين الناس ، وجعل معلم الحق والعدل والرحمة هو قاعدة الحياة الكريمة والسوية .

والإسلام يتحدى العالم في كل عصر وزمان ومكان أن يوجد بديل أفضل منه في الحياة العامة والخاصة ، قال الله تعالى موضحاً المنهاج الإسلامي : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] . ويقصر القرآن الكريم مهمة النبي ﷺ في دعوته العامة على نشر الرحمة بقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ويجعل الإسلام قانونه العالمي العام قائماً على التعاون والتآلف ، لا التناكر والاختلاف ، ولا الصراع والخصام والتضاد ، ولا التآمر والتقاتل والتدمير ، وذلك في صريح بيانه الشامل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات : ١٣] . والتقوى رمز لكل القيم الإيجابية والصالح والعمل النافع والبناء الشامخ وتعميم الخير ، واستتصال كل نوازع الشر والانحراف .

ففي العقيدة : تتجلى الوسطية والاعتدال بين الخالق والمخلوق ، والخالق هو الإله الواحد ، فلا آلهة أخرى على الإطلاق ، والمخلوقون هم على قدم المساواة عباد الله ، وليس هنالك وسطاء بين الله وعباده ، والعلاقة مباشرة وسهلة مع الله بطاعته ومحبه ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَوْقَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلٍ أَلْوَيْدٌ ﴾ [ق : ١] ، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ

يَتَكَبِّرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿ [غافر : ٦٠] والله هو الرازق ، ولا رازق سواه ، وهو وحده الذي يحاسب الخلائق يوم القيامة على أعمالهم الخيرة والشريرة ، وهذا غاية العدل والإنصاف ، والاعتدال والتسوية بين الناس دون تمكين أحد من المحاباة والميل أو الجور .

وفي العبادة : تتجه كل النفوس صاغرة منقادة إلى ربها ، شاؤوا أم أبوا ، فلا معبود إلا الله ، ولا تصح العبادة لغير الله ، والناس ذكوراً وإنثاءً متساوون في الطاعة والتكليف ، دون توسط أحد إلا لمن أذن له الرحمن بالشفاعة ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

والعلم والتعلم وإدراك العقل : ممكنان لكل أحد ، والملكات واحدة أو متقاربة ، والتفاوت إنما هو في إعمال العقل وتفعيله وفي تفوق أو توسع المعلومات ، قال سبحانه : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] . فلا تكتب المعارف بألوان التقليد الأعمى والظنون والشكوك والأوهام ، ولا بأدلة الحس والوجدان ، والأخبار وحدها ، وإنما بتزويد الله المعارف أيضاً : ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ثم تميئها بالعقل والاختبار والتأمل والملاحظة والمشاهدة والإدراك ، وهذه وسطية المعرفة الجامعة بين المنحة الإلهية والطاقة البشرية .

والإنسان : مكون من جسد وروح ، ولكل إنسان حاجات ومطالب ، فجمع الإسلام بين مراعاة الماديات والروحانيات ، وبين الدنيا والآخرة ، لتحقيق التوازن والاعتدال ، والكفاية ، دون لجوء إلى الكبت والقسر ومعاداة الفطرة ، ومثال ذلك : إباحة الزواج وتحريم

الرهينة ، والإذن بتناول الطيبات والتزين المباح في الحياة ، قال تعالى : ﴿ يَبْقَىٰ عَادَمٌ خُدُوًا زِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

[الأعراف : ٣١-٣٢] .

والأخلاق الإسلامية والقيم الكريمة والعليا تتضح فيها بحسب منهج القرآن المجيد معالم الوسطية والاعتدال ، فلا شذوذ ولا إفراط ولا تفريط ، ولا حرص على المنافع المادية فقط ، وإنما لا بد من الإحسان والتراحم ، وإعمال القوة العاقلة والإشفاق ، وتحقيق التوازن أو التعادل في المعاملات بالتزام فضيلة العدل وإعطاء كل ذي حق حقه ، والانضباط دون التهور باستخدام الجرأة الأدبية والشجاعة دون إلقاء النفس إلى التهلكة ، وبالجدود من غير إسراف ولا تقتير ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل : ٩٠] ، وقال عز وجل : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوِّ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ... ﴾ [النساء : ١٤٨] ، وقال سبحانه : ﴿ وَحَزَبُوا سِنَتَهُ سِنَتَهُ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] ، وقال نبي الإسلام : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » أو « صالح الأخلاق »^(١) .

والاقتصاد أو المال في الإسلام قائم على مبدأ تحقيق الكفاية ، والمنافسة الحرة ، والتوازن بين مصلحة الفرد والجماعة ، ورقابة الله في الأخذ والعطاء ، وتلك هي الوسطية الراسخة التي تضمن للناس الاستقرار والاطمئنان ، قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة .

وَمَا آتَىٰ أَمْوَالٌ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴿البقرة : ١٧٧﴾ .

ونحن أمة الوسط في التربية والتعليم والدعوة إلى الدين الحق ، فلسنا نهمل أنفسنا كما ولدت ، وتركها على الطبيعة بمالها وما عليها ، وإنما لا بد من المجاهدة والتزكية والترويض وتعديل الغرائز ، ومراعاة مؤثرات البيئة الاجتماعية النفسية والسلوكية ، لقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٩-١٠] أي قد فاز من نمى عوامل الخير والفضيلة في نفسه ، وخسر من أهمل نفسه فلم يتعهداها بالرعاية والتربية . ودعوتنا إلى الدين بالعقل والمنطق والأسلوب الحسن دون إجبار ولا إكراه ، لقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ . . ﴾ [الأنعام : ١٥٣] ، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

ووسطيتنا في نظام الحكم والإدارة واضحة ، فهي تقوم على منهج الشورى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] .

فلا دكتاتورية ولا استبداد ، ولا ديمقراطية زائفة تحمي مصالح الرأسماليين وأعدائهم .

ولا احتكار لأرباب الشركات الكبرى ، وأصحاب النفوذ والطفيان ، ولا نلغي وحي الله وشرائعه ، أو نحتكم إلى مجرد العقل البشري الذي قد يخطئ ويضل ، بل قد يتأثر الواضعون للقوانين بالأهواء والمصالح ومراعاة حاجات فئة معينة .

والإدارة في الإسلام تجمع بين مزايا النظام المركزي واللامركزي كما هو معروف .

والعلاقات مع غير المسلمين في الداخل تعتمد على أصول التعايش الودي والتحابب والتواصل والتعاون في كل المجالات ، مع الاعتراف بالمواطنة التامة لغير المسلمين والتعامل بمقتضى العدالة والمساواة ، لقوله تعالى : ﴿ لَا يَنْهَكَ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحة : ٨] .

وفي الخارج تقوم علاقاتنا الخارجية أو الدولية على احترام مبدأ السلم والأمن الدوليين ، وتبادل المصالح ، وعدم اللجوء إلى الحرب أو القتال إلا لضرورة أو للدفاع عن النفس والبلاد ووجود الأمة ودفع الظلم ، وحماية المستضعفين ، لقوله تعالى معبراً عن المبدأ الشامل : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] .

واحترام حقوق الإنسان أساس في شريعتنا ، في مظلة المبدأ العام وهو تكريم الإنسان من الله ومن عباده ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَجْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

هذه هي نماذج الوسطية والاعتدال في ميزان الشريعة الإسلامية ، لها مدلولها وتغلغلها في كل أحكام الشريعة ، ووجوب التزامها وتطبيقها .

مدى التزام المسلمين قادة وشعباً بثريمتهم

المسلمون حكاماً ومحكومين أشد الناس وأكثرهم في الجملة التزاماً وتقيداً بأحكام شريعتهم الإلهية ، لانطلاقها من منهج العقيدة الراسخة والمهيمن على النفس ، والتعبير عن تفاعله المتميز في نفس الإنسان ، أثناء عبادته لربه في الصلاة والصيام والزكاة والحج ، واستشعار هبة الله وجلاله والخشوع له ورقابته في السر والعلن .

فلقد كان أغلب الحكام المسلمين إجمالاً في تاريخنا الماضي مثلاً رائعة في تطبيع شرع الله ، على تفاوت بينهم في القلة والكثرة ، والضعف والقوة ، والاستخذاء أو الاستضعاف والجرأة والشجاعة ، والتقوى ، وما يزال المسلمون في الجملة على الرغم من انفلات بعضهم وانغماسه في المعصية والانحراف هم عناوين مشرفة وواضحة للعمل بهدي الله تعالى واتباع رسوله في مقاومة الأهواء ، وجهاد النفس والعدو والخارجي ، والشيطان ، والحذر من وساوسه ، كما أوضح القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْفُرُودُ ۗ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْهُدٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۗ إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۗ ﴾ [فاطر : ٦٥] ووعي الكثرة المملعة واضح في اتباع الحق والبعد عن الضلال والفسق ، وإن ضل أكثر غير المسلمين أو بعض المسلمين أو انغمسوا في المعاصي ووهاد الانحراف ، فهذه هي السمة الغالبة التي تؤكد أننا على الحق ، وإن تواطأ الأكثرون على مناصرة الباطل ،

واختراق أصول الشرع الإلهي ، كما وصف القرآن الكريم هذه الظاهرة في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٦] أي يخمنون ويقدرّون من غير بينة وعلم ، بل ويكذبون .

وظاهرة الالتزام الإسلامية تضيء على المسلمين في الغالب صفة الاطمئنان والثقة ، وتحمي مصالح الآخرين ، إذا كانوا يؤيدون الاحتكام إلى قواعد الحق والعدل والمنطق والموضوعية وتطبيق شريعة الوسطية ، لا اللجوء إلى الأهواء وتحقيق المطامع والانزلاق في مغبة الاستكبار والاستعلاء .

فإن من نعمة الله تعالى الوافية على المسلمين أنهم أيضاً وسط في الزمان والمكان والفعالية .

أما وسطية الزمان : فالمسلمون لم يكونوا مثل الغابرين المتخلفين أو البدائيين ، وليسوا في نهاية عمر الزمان ، حيث يأفل نجم الحضارة ، ويتقاصر مدى الانطلاق الحضاري ، وكانت شريعتهم منسجمة مع تطور العقل البشري ، وتقدم العلوم والمعارف ، وهم الآن في الربع الأول من القرن الخامس عشر يشهدون قفزة الحضارة المعاصرة إلى القمة ، ويستفيدون من نتاجها ، ويتمتعون بخيرها وحصادها وإن قصروا في الإسهام فيها بسبب تكتل قوى الآخرين ضدهم ، وتطويقهم ، وحصرهم في أضيق نطاق ممكن ، وتجدد محاربتهم وإضعافهم في كل زمان ، وإبقائهم في درجة كبيرة من التخلف والتفرق والجهل والضياع .

وأما وسطية المكان أو الموقع الجغرافي : فمكة المكرمة وفيها البيت الحرام والكعبة المشرفة التي هي قبلة المسلمين في المشارق

والمغرب هي في منتصف مركز الكرة الأرضية ، والعالم موزع من حولهم في الجهات الأربع . والشرق الأوسط الذي يعيش فيه أعداد كبيرة من المسلمين محطة أنظار العالم ، وهو أهم موقع في الصراع الدائر بين الشرق والغرب ، ومزايا هذا الموقع كثيرة ومهمة جداً ، ففيه المعادن المختلفة والثروات النفطية الهائلة بنسبة خمس مخزون النفط العالمي وهو موقع استراتيجي حساس ، ومناخه معتدل .

ووسطية الفعالية : واضحة المعالم في الفكر الإسلامي المتجدد والمعطاء والقابل للنماء السريع ، إذا أزيلت السدود ، وحطمت القيود المحيطة بالمسلمين وما أكثرها ، لأن الحضارة الإسلامية حضارة قوية وشاملة وقابلة للانبعاث من جديد ، ولأن المسلمين الأصحاء فكراً وعقيدة وسلوكاً لا يرضون بغير اعتلاء برج القمة في السبق الحضاري ، وإن كانت الظروف المحيطة شائكة ، وكثيرة التعقيد ، وهذا ما يزرعه الأعداء من شرق وغرب في الوسط الإسلامي لمواجهة المسلمين ، ومحاولة إبقائهم متخلفين ومجزأين أو متفرقين شيعاً وأحزاباً وحكومات متنافرة .

وكفى تزكية وشرفاً للأمة الإسلامية أنها مقبولة الشهادة عند الله في الآخرة ، وقد منحها الله تعالى صفة التزكية ، فصار المسلمون شهوداً عدولاً ، كما قررت الآية الكريمة التي يستشهدون بها خطأ على وسطية الأمة وهي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا . . . ﴾ [البقرة : ١٤٣] والوسط هم الخيار والعدول ، وليس معناه التوسط في الأمور والاعتدال في الأحكام ، فهذا يفهم من آيات أخرى مثل قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . ﴾

مفهوم الوسطية والاعتدال وأفاقه الإنسانية المعاصرة

الوسطية : تعني التوسط بين الطرفين كوسط الدابة والمكان والمرعى والحال المعيشية ، وأقرب ما يعبر عنه لغة أنه الاقتصاد ، أي الوقوف في موقف الوسط والاتزان ، كما جاء في الحديث النبوي : « خير الأمور أوسطها »^(١) وكما وصف الحق تعالى أصناف الناس في مواجهة الشرائع والكتب الإلهية : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، والمقتصد : المتوسط .

ويشير أو يرشد إليه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] ، وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٩] .

ووصف الله شريعته بأنها على الصراط السوي : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

(١) ذكره الدليمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً ، ولأبي يعلى بسند رجاله ثقات عن وهب بن منبه قال : « إن لكل شيء طرفين ووسطاً ، فإذا أمسك بأحد الطرفين مال الآخر ، وإذا أمسك بالوسط اعتدل الطرفان ، فعليكم بالأوسط من الأشياء » .

والاعتدال : معناه الاستواء والاستقامة ، يقال : اعتدل من الركوع أي استقام ، واعتدل المناخ : كان الجو نظيفاً ، لا بارداً ولا حاراً .

والتسامح : صيغة مفاعلة بإظهار السماحة من الجانبين ، والأدق أن يقال : سماحة الإسلام ، أي المتجسدة في ذاته وتعاليمه وأحكامه ، ولا يتوقف ذلك على سماحة خصومة من الآخرين غير المسلمين . ومعناه : الأخذ بالأيسر والسهولة ، والابتعاد عن الشدة والقسوة ، وهذا المبدأ وهو اليُسر أو عدم الحرج من خصائص التشريع الإسلامي المقرر في آيات كثيرة ، ومنها : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

وتكون الكلمات الثلاث مؤدية معنى متقارباً يتمثل في أن تعاليم الإسلام ليس فيها غلو أو تطرف أو إرهاب ، ولا تهاون أو تقصير ، أو ذل أو استسلام ، وإنما لا بد من الحفاظ على حق المقاومة أو الدفاع أو جهاد المعتدي ، للحفاظ على الوجود .

ومقتضى ذلك : أنه لا يجوز ولا يصح بحال تعطيل أو نقض أحكام الشريعة ، ولا الزيادة عليها ، أو الابتداء فيها ، فالإسلام دين الحكمة والجرأة والأصالة وتسديد الحقوق والوفاء بها . وهذا يعني أنه لا يصح أن تفهم الوسطية وما في معناها أنها استسلام لأطماع الأعداء أو الرضا بالتسلط وممارسة الظلم وهضم الحقوق ، وابتلاع الوجود الإسلامي أو العربي ، أو المساس بالمقدسات ، أو الإذعان والخضوع لهيمنة المحتل أو الغاصب أو الظالم ، فإن الإسلام دين الحق والعدل والمنطق والعزة ، قال الله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْمُدَيِّنِ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف : ٩] ، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

والإسلام أيضاً دين الرحمة والحضارة والمدنية ، فلا يقر العدوان ولا الفساد أو الإفساد ، ولا الضرر والإضرار ، ولا يبيح لفئة شاذة أن تعيث في الأرض فساداً دون إذن الحاكم العادل أو موافقة السلطة الشرعية ، وإلا صار الأمر فوضى ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة : ٦٠] وندد الله سبحانه بالمفسدين في الأرض في قوله : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾ [البقرة : ٢٠٥] ووبخ الله تعالى قادة الفساد الذين يورطون غيرهم في الآية الشريفة : ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُتَشْرِكِينَ ﴾ [١٥١] الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥٢-١٥١] .

وقال النبي المصطفى ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يروّع مسلماً »^(١) أي ولا غير المسلم ، وفي حديث آخر : « ملعون من ضارَّ مؤمناً أو مكر به »^(٢) وهو يشمل أيضاً غير المؤمن ، لأن الله يحرم على الإطلاق الضرر والإضرار بأي واحد .

هذه هي واجهة الإسلام وحقيقته ، وهي رسالة عامة للبشرية وخالدة ، فلا يعقل أن يكون فيها ما يصادم العقل والحكمة والمصلحة ، وإنما خيرها يعم الإنسانية ، وهي تطمح أن يفيء الناس جميعاً إلى ظلها ، ويدخلوا في لواء عقيدتها ، وذلك يعني أن الإسلام دين لا يعرف الإرهاب وهو الاعتداء غير المشروع ، ولا يقر الفساد والإضرار ، ولا يفرط في الحقوق المشروعة ، ولا يرضى لأتباعه تحمّل الضيم والأذى ، وقد أذن القرآن الكريم بالقتال في أول آية مع بيان أسباب مشروعية الجهاد لردّ الاعتداء والدفاع عن الحرمات : حرمة

(١) أخرجه أحمد وأبو داود عن رجال ، وهو صحيح .

(٢) أخرجه الترمذي عن أبي بكر ، وهو حديث حسن .

النفس (حق الحياة) والعرض (القيم العليا) والمال (حقوق الإنسان المادية) ، فقال تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ [الْحَجَّ : ٤٠-٣٩] . فلا يكون الجهاد أداة صراع مع الآخرين ، وإنما هو وسيلة لإشاعة السلام واستقرار الأوضاع وتبليغ دعوة الحق والتوحيد والعدل .

وإذا وجد ظرف الاستضعاف أو الضعف ، وجب الصبر ، حتى تتوافر القوة المناسبة لاستخلاص الحقوق المغتصبة . وهذا الاتجاه هو ما تقره شرعة أو ميثاق الأمم المتحدة ، فيجب على أهل هذه الشرعة وهم المجتمع الدولي أن يحافظوا عليها ، وأن يعاملوا الآخرين بمكيال أو ميزان واحد ، ويتعدوا عن ازدواجية المعايير ، والمعاملة لحساب طرف على حساب الطرف الآخر .

* * *

الوسطية بين الخصائص الكامنة والممارسات الظاهرة

الوسطية في الإسلام ظاهرة واضحة من خلال ما تقدم ومن صريح النصوص القرآنية التي تقرر مبادئ ثابتة ، منها : دفع الحرج والأخذ باليسر ، كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِمْرًا كَمَا حَمَلْتُمْ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا . . . ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .
والإصر : التكليف الشاق والأمر الصعب ، فهذا مرفوع في شرعنا .

ومن مقتضيات الوسطية : إقرار الحرية للمؤمنين ولغير المسلمين في أن يختاروا ما يريدون ، ثم يكون الحساب على ما اختاروا ، فإن أسأؤوا الاختيار عوقبوا ، وإن أحسنوا الاختيار كوفئوا بالجزاء الأحسن ، لاتضاح الأمور وظهور الحق وانكشاف زيف الباطل ، وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِسُكِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩] فالآية تعني الإنذار والتهديد لكل من أساء الاختيار فصار من الظالمين .

وتقرير الحرية للآخرين يعني تمكينهم من ممارسة الحرية بأنواعها ، وهذا لا يتوافر إلا بنظرة السماحة أو التسامح بين أفراد المجتمع الإنساني ، ثم يترك أمر الحساب على سوء الممارسة إلى الله عز وجل

في الدار الآخرة ، وليس على النبي الرسول ﷺ ولا على العلماء وأمة الإسلام إلا البيان وتبليغ الدعوة ، دون إحراج ولا تضيق ولا إكراه ، كما أبان الحق تعالى بقوله : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] وقوله عز وجل : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴾ [الغاشية : ٢٢] وقد أراح الله البشرية قاطبة بهذا البيان العام الشامل القاطع لتعميم الحرية وتعميقها في آية : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٩٩] .

والتزم المسلمون في كل عصر بهذا التوجيه ، فلم تقع حادثة منهم تتنافى أو تتصادم مع هذا النداء الإلهي ، ولم نجد في التاريخ أن أحداً من المسلمين أكره غيره على الدخول في الإسلام ، لأن العقيدة تتطلب الاقتناع والاستقرار الذاتي في القلب ، ولا ينفع الإكراه في إيجادها أو حمل الناس على إعلانها ، لأن ما ثبت بالإكراه سرعان ما يزول بعد زوال ظرف الإكراه .

ومن متطلبات الوسطية والتسامح : الاعتراف بالآخرين وبالتعددية الدينية والمذهبية والعرقية والفلسفية في العالم ، فكل ما يعارض هذا التوجه يؤدي إلى الإخلال بالثقة ، ويزرع التهمة وسوء الظن ، ويحول دون ممارسة ظاهرة السماحة والتقارب والتعايش السلمي والودي الذي عامل به المسلمون غيرهم ، فظاهرة الاختلاف وضع قائم ، وعلى الرغم من الاختلاف ، فلا بد من التعارف والتعاون في عالم الدنيا وترك حصيلة الاختلاف للحساب في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ يَتَأَيَّأُ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] .

والوسطية : تعني أيضاً ضرورة الانفتاح على الآخرين ، ومواصلة

الحوار معهم ، والحوار الهادئ القائم على الاحترام المتبادل بين طرفيه يحقق آثاراً ونتائج طيبة ونافعة ، لأن سماحة الإسلام تغرس في النفس الراحة والطمأنينة بعد أداء الواجب في البيان والتبليغ . وليس الهدف من الحوار كما يشيع الآن مجرد محاولة تهدئة الطباع وإزالة التوتر ، وتخفيف حدة الصراع والنزاع ، وانتزاع الغل والحقد والكراهية والبغضاء من النفوس ، وإنما الهدف الأسمى هو إثراء الفكر ، وإظهار السماحة ، وتبيان الحق ، وتحقيق مدلول التعاون المثمر بين المجتمعات الإنسانية والعائلة البشرية فيما يعود على الجميع بالخير وتبادل الود والمحبة وإظهار حسن النية ، وزرع الثقة وحسن الظن ، والبحث عن الجسور المشتركة بين أفراد النوع الإنساني التي هي اللبنة الأساسية للتعاون بين الأمم والشعوب ، وحينئذ يكون الحوار ضرورة وقيمة إنسانية ودينية في آن واحد ، ومظهراً حضارياً رفيعاً .

والوسطية أو السماحة : لا تعني اللجوء إلى التحريض وزج المجتمع الإنساني في أتون المنازعات أو الاقتتال وإشعال نيران الحروب ، فإن دعوة الإسلام في أصولها وممارساتها قائمة على إثارة السلم والسلام ، وعدم الالتجاء لاستخدام القوة إلا عند الضرورة أو الدفاع ، أو منع الظلم ، أو إغاثة المستضعفين .

ولعل أفضل ما أذكر به في هذه المناسبة : ضرورة الاستئذان بلقاء النداء الإلهي في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [البقرة : ٢٠٨] وذلك سواء فسرت الدعوة إلى التزام ظاهرة السلم بالإسلام فهو كله سلام ، أم بالسلم والأمن ضد الحرب والقتال .

خاتمة

وبعد بيان هذه اللحاحات الإيمانية الصافية يتبين لنا ما يأتي :

١- ضرورة وضع تعريف شامل وموضوعي نابع من منطق الحق والعدل لكلمة « إرهاب » التي اتخذتها قوى الاستكبار العالمي والصهيونية العالمية مظلة لشن الحروب الطاحنة واحتلال أراضي الدول الأخرى ، وتدمير كل مظاهر العيش الكريم وإيابة الشعوب ، وجعل البلاد والأوطان والديار مهدمة على رؤوس أهلها ، وقتلهم ، وتشريد الشيوخ والنساء والأطفال من ديارهم ، وقصف المساجد ودور العبادة بأفتك آلات الخراب والدمار ، لتصريحهم بأنهم لا يؤمنون بقديستها ، وجعل البلاد صحارى بعد عمرانها .

٢- إن « المقاومة » أو الجهاد أو الدفاع ضد المحتل واجب مقدس ومشرف ، وذلك ما يعترف به ميثاق الأمم المتحدة ، بغض النظر عن أن جنود الشر من قوى التحالف الغربي يصرحون بكفرهم وضلالهم ، وأنهم لا يؤمنون بالدين إسلاماً كان أو غيره ، ولا بالمقدسات ، وإنما يعتمدون على قوة الاقتصاد والسلاح وغطرسة القوة العسكرية وتفرد أمريكا بزعامة العالم أو الانفراد بالقطب الواحد .

٣- إن هذا الإرهاب الدولي الذي تمارسه قوى التحالف الغربي في العراق وفلسطين وأفغانستان وغيرها من البلاد كان هو السبب في ظهور الإرهاب بالمعنى الذي يريدون ، بل إنه هو السبب في تزايد ظاهرة

الإرهاب وانتشارها ، وتأجيج نيران الحقد والكراهية بين الناس ، والظلم والاستماتة في الدفاع عن حرمة الأوطان .

٤- إن تورط بعض الشباب المسلم في ارتكاب بعض الأعمال الإرهابية في داخل الدول العربية والإسلامية وغيرها لا مسوغ له بحال ، بل يتنافى مع خصائص الوسطية الإسلامية والتسامح الإسلامي ، وهو إفساد وخراب وتدمير وتقتيل ، ولا يقره شرع الله ودينه . وعلماء المسلمين قاطبة متفقون على عدم مشروعيته والتنديد بمن يمارسه أياً كان مقصده أو نيته ، فهؤلاء فعلاً هم الإرهابيون الذين تجب مقاومتهم ، ولكن هل تأديبهم يعني حصاد الشعوب واحتلال الأوطان من قبل المستعمرين الظالمين؟!!

٥- أما الرد على عدوان المعتدين في أي مكان والدفاع عن النفس والبلاد والممتلكات والمقدسات فهو دفاع مشروع ، ومقاومة شريفة بل وواجبة ، ولا يسمى ذلك إرهاباً بل الإرهاب هو ما تصنعه دول الظلم والعدوان وما يقوم به أهل الحق يعد مقاومة مشروعاً ضد المعتدين .

٦- على جميع المسلمين في العالم تأييد أبطال المقاومة ضد المحتلين والغاصبين والمعتدين بالمال والنفس وكل أنواع المؤازرة والدعم والمشاركة والتعاون ، وذلك يعد استهاداً في سبيل الذود عن الحقوق ، وليس انتحاراً كما أساء فهمه بعض المفتين ، بل وليس حراماً كما زعم بعض المفتين ؛ لأن هؤلاء المقاومين لا يملكون غير هذه الوسيلة .

٧- على أولئك الذين يتورطون بأعمال تخريبية أو غيرها في داخل الدول العربية والإسلامية ضد حكوماتهم أن يدركوا أن ممارساتهم هذه مهما قيل في تأويلها وتسويغها هي خطأ محض ، تتصادم مع خصائص

شريعة الله ، ومنها الوسطية وتحريم الفساد والتدمير بغير حق ، فذلك هو عين الشر والباطل ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

٨- إننا بأشد الحاجة لفهم شرائع الإسلام فهماً صحيحاً وعميقاً ، وأن يكون خطابنا للآخرين متحمساً بالأسلوب الحسن والخطاب الرفيق المعتدل ، والحكمة والموعظة الحسنة ، ومدروساً ونابعاً من مقتضيات الأصالة والمرونة ، والعقل والوعي للحاضر والمستقبل ، والأخذ بمنهج الاعتدال والوسطية ، وبخاصة حال الضعف والتحديات الخطيرة ، مع تقدير وضع توازن القوى والقدرات .

* * *